علاقة الفلسفة بالحس المشترك
حسب برغسون

The Relationship Between Philosophy And Common Sense in Bergson's Thought

أ. عثمان البية

جامعة محمد الخامس
المغرب

otmanboya@gmail.com

علاقة الفلسفة بالحس المشترك حسب برغسون

أ. عثمان البية

ملخص:

يهدف هذا المقال إلى دراسة مفهوم الحس المشترك من وجهة نظر برغسون، من خلال محاولة رأب الصدع بين كونه مكمن آراء المجتمع الجاهزة ومصدر الأحكام الظنية وبين كونه نورا فطريا أو عقلا أو ذكاء يشكّل مصدر الأحكام اليقينية. فهو يحمل معنيين متناقضين: أحدهما يشكّل عدو الفلسفة اللدود، والآخر لطالما شكل جوهر فعل التفلسف. فبالنسبة إلى برغسون العقل ينهل لبناته من الحس المشترك باعتباره أحكاما جاهزة، بمعنى أنهما نفس الشيء. لذا يؤسس لحس آخر مبدع وخلاق، مرتبط بحدس الحياة.

الكلمات المفاتيح: الحس المشترك، برغسون، الفلسفة، الحقيقة، الوهم.

Abstract:

This article aims to explore the concept of **common sense** from **Bergson's** perspective، by attempting to bridge the gap between its role as a repository of society's ready-made opinions and source of probabilistic judgments، and its alternative conception as an innate light، or as reason or intelligence that grounds certain judgments.

Common sense thus carries two contradictory meanings: one that stands as philosophy's sworn enemy، and another that has always formed the very essence of philosophical inquiry. For Bergson، the intellect draws its raw material from common sense as a collection of pre-formed judgments—in other words، the two are essentially the same.

Hence، he proposes a different kind of common sense: a creative، generative one، intimately tied to the intuition of life.

Keywords: Common Sense, Bergson, Philosophy, Truth, Illusion.

1- تقديم:

يُعرف **الحس المشترك** common sense بأنه ما درج بين الناس وما انتشر بينهم وما اعتادوا عليه وألفوه من أفكار نظرية وعملية دون فحص أو تمحيص. بمعنى أنه مجموعة من الأحكام المسبقة والمتواضع عليها بين العامة من الناس. هذه الأحكام التي تشكل معيارا للصواب والخطأ والجمال والقبح... موجهة بذلك نمط تفكير **المجتمع** بأسره، نحو وجهة معينة بطريقة لا واعية. وهذا عينه ما نشأت **الفلسفة** لتحاربه، أتت كرد فعل على الأفكار الساذجة الشائعة داخل **مجتمع** معين. إنها هذا الصعلوك المتمرد الذي يشتم المفارقات والتناقضات التي تبدو للجميع معتادة ومألوفة. ومنذ عهد الحكماء الطبيعيين فإن العداء صارخ بيّن ومحتدم بين **الفلسفة** وبين هذه **الأحكام المسبقة** التي تثير تقززها واشمئزازها.

تعددت استعمالات مفردة Sense، فتارة تعبر عن المعنى الثاوي خلف الكلمات وتارة تعبر عن الاتجاه أو الوجهة (حمادي أنوار، 2025، ص 119). فهي بالنسبة لبرغسون ليست خزان معان بقدر ما هي فعل حركة فكرية تتجه مباشرة إلى موضوعها الذي هو الحياة وتتماهى معه. فالحس بهذا المعنى ليس عملية اكتشاف لما هو موجود سلفا وإنما هو مشاركة في الخلق والإبداع.

ومع ما تعرفه مفردة الحس من اشتراك في المعنى، فإنها تزداد غموضا حالما نخصها بـ**الحس المشترك** حصرا، الذي يطلق في أحيان كثيرة على معان جمة قد تبدو متنافرة أو متناقضة حتى؛ منها ما هو مرتبط بالأحكام اليقينية ومنها ما هو مرتبط بالأحكام الظنية، وقد نقولها فنقصد العقل وقد تُقال فيُقصد بها الإحساس أو الشعور. فما المقصود من الحس المشترك فلسفيا؟ وأين تكمن أبرز استعمالاته؟ وأية علاقة تربطه بالفلسفة؟ هل هي علاقة ودّ أم علاقة عداء؟ وكيف حل برغسون التناقض الظاهر من تعدد معاني الحس المشترك؟

2- أبرز استعمالات لفظة الحس المشترك:

قطعا لا نتغيا من هذه الفقرات جرد الاستعمالات الفلسفية للكلمة بقدر ما نصبو إلى الوقوف عند الفلسفات التي وقف عندها برغسون نفسه في إطار حديثه عن **الحس المشترك**، لكي نفهم حقيقة تعدد معانيه حسب الفلسفة البرغسونية.

لكم أغلظ **هير اقليت** Heraclitus (535 ق.م – 470 ق.م) على العامة من الناس والغوغاء، لدرجة أنه قد يشبههم بالكلاب أو الحمير أو يلقبهم بالمراميط والأطفال أو السكارى أو البلهاء... احتقارا لهم، لكنه لم يصف أفكارهم إطلاقا، طوال 126 شذرة (فريدريك نيتشه، 1983، ص101-111)، بأنها أفكار تنتمي إلى **الحس المشترك**. بل الأدهى من هذا أنه يؤكد على أن ما ينبغي أن ننصت له جميعا هو ذاك المشترك بين جميع الناس، ذاك الذي يسميه تارة **الفكر** وتارة أخرى **اللوغوس**. يقول هيراقليت: «إن الفكر مشترك بين الجميع» (المصدر نفسه، ص110)، ويقول أيضا: «لكي نتكلم بذكاء، يجب أن نستمد قوتنا مما هو مشترك بين الجميع، كما تستمد المدينة قوتها من القانون، وأكثر، ذلك أن القوانين البشرية يغذيها القانون الإلهي الوحيد، الذي يسيطر على كل شيء على هواه، يكفي كل شيء ويفوق كل شيء» (المصدر نفسه، ص110).

لكن هل يعتبر هذا المشترك حسا؟ ذاك ما لا نجرؤ على الإقرار به، غير أنه حتما ضرب من الإصغاء، إصغاء لا بالأذن وهو القائل: «العيون هي شهود أصدق من الآذان» (المصدر نفسه، ص109). وإنما هو إصغاء بنوع من **الحدس**، الذي يسميه **نيتشه بالحس السليم**. بل حاسة الإصغاء عنده أقرب إلى **المناخير** منه إلى غيرها، إذ يقول: «إذا تحولت كل الأشياء إلى دخان، فإننا سندركها بواسطة المناخير» **(**المصدر نفسه، ص102). ويضيف أيضا: «بالإصغاء، لا إلى نفسي، بل إلى اللوغوس، من الحكمة الاعتراف بأن الكل هو واحد» (المصدر نفسه، ص105). والأكيد أن هذا **المشترك** هو ما يقف خلف كل حواسنا دون استثناء، يوحد كل المعطيات التي تستقبلها على تناقضاتها، وسواء أسمينا هذه الملكة حسا أو حدسا فهي هذا المشترك عينه.

والأمر نفسه بالنسبة **لبارمنيد** Parmenides (540 ق.م - 480 ق.م) الذي أغلظ في وصف الجمهور بأنهم جهلة وعديمو التفكير، لكن وهو يتحدث عن آرائهم، لا يصفها أبدا بالحس المشترك. بل الأقرب إلى المشترك بين جميع الناس من جهة، والوجود من جهة أخرى؛ هو **الفكر** الذي يوحد لا الآراء التي تفرق.

والملاحظ أيضا أن **أرسطو**، حاله كحال جل فلاسفة اليونان والحكماء الطبيعيين، يعرض الأفكار السائدة في عصره وأفكار السابقين عليه، ثم ينقضها الواحدة تلو الأخرى، وهذا دأبه في جل المباحث. ولم نصادفه قط يدعوها بأفكار **الحس المشترك**. بل يسمي **حسا مشتركا** حيث تجتمع الإحساسات التي نستقبلها من العالم الخارجي. وهذا ما يقر به **لالاند** أيضا في تعريفه للحس المشترك، حسب وجهة نظر أرسطو و**السكولائيين الجدد** عموما (أندريه لالاند، 2001، ص 1268-1269). فالحس المشترك لفظ دال في متنه على **وحدة الفاعل الحسي**، وهو بهذا المعنى له **خاصيتين اثنتين**:

الأولى أنه **مشترك** بين الإنسان والحيوان، وهذا واضحا أيضا من تعريف لالاند إياه على لسان السكولائيين بأن: «الحس المشترك، المسمى هكذا لأنه يجمع ويمركز كل الأحاسيس الأخرى، هو ذلك الذي نحس به أننا نرى، أننا نسمع، إلخ.؛ فهو يستجمع أو يتلقى كل الأحاسيس الأخرى فيؤلف بينها، إنه الوعي الوحيد (إذا كانت هذه الكلمة مسموحة) الذي يملكه الحيوان والذي لولاه لما كان في الإمكان تفسير وحدة حياته» (المصدر نفسه، ص1269).

والثانية أنه **درجات**، وهذا ما نلمحه بوضوح في مقالته "الألفا الكبرى" (إمام عبد الفتاح إمام 2005، ص 257)، إذ يترق في عرضه لسلم الكائنات تبعا لملكاتها؛ أي من الحواس، إلى الإحساسات التي يوحدها الحس المشترك. ويزداد هذا الحس قوة كلما ازدادت الملكات المتدخلة فيه مثل: الذاكرة، والاستدلال، والصنعة، والتجربة، والخبرة، والفن، والحكمة. يقول أرسطو في هذا الصدد: «فأساتذة كل حرفة هم أكثر تبجيلا، وهم يعرفون بحس أصدق، كما أنهم أكثر حكمة من العمال اليدويين؛ لأنهم يعرفون أسباب الأشياء التي تم صنعها» (المصدر نفسه، ص258). ورغم ما شنه **أفلاطون** من نقد لاذع للسفسطائيين والغوغاء على حد سواء، فإننا لا نعثر على نعت أفكارهم بأنها أفكار تنتمي إلى **الحس المشترك**، ولكنه يصفها بالظنون والآراء والظلال والأوهام...

ليس عبثا أن يبدأ **ديكارت** مقالا أخذ منه عشرين سنة من عمره على صغر حجمه نسبيا (حوالي 46 صفحة) بعبارته الشهيرة: الحس الجيد هو الشيء الأفضل توزعا بين الناس. ولما كان هذا الشيء موزعا بين

الناس بالتساوي، بحيث لا يشعر أحد أنه بُخس حقه فيه، فإنه **الشيء المشترك** بينهم جميعا. وهو ما من شأنه أن يوحدهم جميعا، وأن يوجههم إلى سواء السبيل. إنه هبة ربانية وقبس إلهي ونور فطري في داخل كل إنسان. الكنز الذي لا يحيد عن جادة الصواب والنبي المعصوم عن الخطأ. لكن ما هذا **الحس الجيد المشترك** بين الناس؟

إن وضع ديكارت لأداة التكافؤ "أو" بين **الحس الجيد والعقل**، يعني أن الحس الجيد هو العقل نفسه. فلا فرق بين العقل والحس من حيث أنهما شيء واحد، هو القدرة على الحكم بشكل أحسن، وعلى تمييز الصادق عن الكاذب. إذن فالحس الجيد هنا يقوم بدورين متكاملين: الدور الأول متعلق **بالاستقبال**، أي إنه يمثل مصفاة لكل ما هو وارد، فيرفض الكاذب من الواردات ويقبل فقط الصادق منها. بينما الدور الثاني متعلق **بالإرسال**، أي إنه يمثل أداة إنتاج المعرفة والأحكام على أكمل وجه. ولكي نفهم دوره بشكل أوضح، لا بد من وضعه في سياقه بين باقي الملكات.

يميز **ديكارت** في الإنسان بين النفس والجسد، ويميز في النفس بين ملكات متعددة مثل الذاكرة والمخيلة والمفكرة والإرادة والعقل أو الحس الجيد. والإنسان بالنسبة إلى ديكارت يبني حقائقه بسيفي **الحدس والاستنباط**. فالحدس سلاح **العقل** بينما الاستنباط سلاح **المفكرة**. أما **الحدس الديكارتي** فهو معرفة مباشرة بالموضوع، أي إنه معرفة عقلية بسيطة لا يمكن إلا أن تكون بديهية ويقينية طالما أنها صادرة عن العقل أو الحس الجيد. وأما **الاستنباط الديكارتي** فهو عملية مركبة تقوم بها المفكرة بناء على علاقات بين سلسلة من الحدوس البسيطة. يحضر الحدس في بداية **الاستدلال** ويحضر أيضا في مفاصل هذا الاستدلال، أي في الانتقال من حلقة إلى حلقة أخرى. غير أن المفكرة في عملية استدلالها المعقدة هاته، توشك في كل لحظة أن تتسرع في استنباط حكم دون مروره من مرشحة العقل أو في إنتاج حكم بواسطة المخيلة لا العقل. وهذا ما من شأنه أن يوقع الإنسان في الخطأ. لذا فكلما اقتربت المعرفة من الحس الجيد أو الحس المشترك كلما كانت أكثر صدقا، وكلما ابتعدت عنه كانت أقل يقينا. لذا نجده يستعمل حروفا مدرجة كثيرة للتعبير عن مدى يقين حكم معين، وهي حروف تعبر إما عن الامتياز أو الجودة أو التوسط أو النقصان أو الضعف.

غير أن هذا **الحس الجيد** ما فتأ يمهد لتيارات فلسفية متعددة على مختلف المستويات. إذ إن كلمة الحس إنما هي كلمة مشتركة وتقبل معان عدة. **فالتجريبيون** سيعتبرون أيضا العقل والحس شيئا واحدا، وأن هذا الحس الجيد أو الحس المشترك هو نظير للحس المشترك لدى أرسطو، أي إنه جماع إحساسات تتفاعل فيما بينها وفق علاقات معينة، وسيذهبون بهذا الموقف إلى مداه الأقصى. **والرومانسيون** سيعتبرونه ضربا من الشعور الخالص، أي أنهم سيتجاوزون اعتبار الحس بوصفه انفعالا من موضوعات خارجية إلى اعتباره فعلا خلاقا. **والعقلانيون** سيعتبرونه بوصلة العقل الرياضي والمنطقي الصارم والخالي من المشاعر. لكنهم جميعا يعتبرون هذا الحس بمثابة قدس الأقداس الذي يفيض على البشرية بكل ما هو إنساني أو إلهي حتى، كالوحي مثلا.

ومن بين هذه التيارات نجد **الكانطية** التي أضفت تمييزا جديدا على **الحس المشترك**، إذ إنها تميز بين **الفهم المشترك** القائم على مجموعة من المقولات المستقبلة للإدراكات الحسية والمنتجة للمعرفة، وبين **الحس المشترك** القائم على **شعور** ذاتي وموضوعي في الآن ذاته وهو شعور متعلق **بالذوق** لا بغيره. هذا الشعور القبلي سابق على كل تحديد مفهومي. وهو نوع من الانسجام بين قوانا المعرفية (المخيلة والفهم) وباعث عن رضى ذاتي. لكن لما كانت قوانا المعرفية هاته مشتركة بين جميع البشر في شكلها القبلي والخالص؛ كان الشعور الذي يولده إنتاج فني معين مشتركا بين جميع البشر، وكان الحكم على ذلك الإنتاج موحدا بين جميع البشر. ما يعني أن هذه الأحكام مهما كانت ذاتية، فهي موضوعية أيضا. ويجدر الإشارة إلى أن ما يسميه كانط **حسا مشتركا**، لا يمكن البرهان على وجوده. وإنما هو افتراض أو مسلمة ضرورية لإمكان حكم الذوق ولتفادي الوقوع في الشكية. يقول كانط في هذا الصدد: «وبما أن إمكانية التبليغ العام لشعور تفترض حسا عاما، بإمكاننا أن نفترض وجوده بحق، ومن دون أن نعتمد من أجل ذلك على ملاحظات نفسية، وإنما على كونه الشرط الضروري لقابلية تبليغ معرفتنا تبليغا عاما، فإن هذا ما يفترض في كل منطق وفي كل مبدإ معرفة لا يكون شكيا» (إيمانويل كنت، 2005، ص 146).

يشعر كانط بالحرج الحاصل حول مفهوم الحس المشترك الذي يستعمل بمعنيين: بمعنى **الفهم العادي** وبمعنى **ملكة الحكم القبلية**. بل إن الحس المشترك بمعناه الثاني لا يمكن أن يقوم بدوره على أكمل وجه إلا إذا تخطى الحس المشترك بمعناه الأول وتجاوزه، أي أن يحقق **مسلمات الفهم العادي** وأن يتجاوزها، عبر التخلص من الأحكام المسبقة التي تجعل من أحكامنا مشروطة بقانون من خارج العقل، فتصير بذلك هذه الأحكام غير خالصة (أي غير خاضعة لقوانين العقل وحده) وتجعل من عقلنا سلبيا. وهذه المسلمات متعلقة **بالفهم وملكة الحكم والعقل**، وهي على التوالي: خروج العقل من حالة القصور والتبعية عبر تخلصه من الأحكام المسبقة واعتماده على تفكيره الخاص وهذا هو معنى **التنوير**، وخروج التفكير من حالته الدوغمائية عبر تخلصه من شروطه الذاتية وينظر إلى نفسه من موقع شامل وهذا هو **التفكير المنفتح**، ثم **التفكير المنسجم** الذي يجمع بين النمطين السابقين من التفكير في نمط واحد لا يترك أي مجال للتمييز بينهما بحيث يكونان الشيء نفسه. غير أن **للحس المشترك** المتعلق **بالذوق** سمات خاصة، هي: أنه متعلق **بالشعور**، وخلو من المفاهيم، وأحكامه قبلية وخالصة. وهذا ما جعل من كانط يقول فيه: «نستطيع أن نطلق بحق تسمية الحس العام على الذوق أكثر من تسميته الحس السليم، وأن ملكة الحكم الجمالية هي أكثر جدارة من ملكة الحكم العقلية بحمل اسم حس مشترك» (المصدر نفسه، ص217).

ليس كانط وحده، بل نجد هذا التحديد للحس المشترك في فلسفات شتى، وإن كان ذلك على نحو خجول. فكل فلسفة تقدم مبادئها الأولى على أنها كونية إلا وتلجأ إلى الحديث عن منبع قبلي لهذه المبادئ كامن في **العقل** أو **الشعور** أو **الضمير** أو **الفكر** أو **اللوغوس**... وهو موجود على نحو مشاع بين الجميع وبالتساوي، بدء من سقراط إلى حدود **برغسون**؛ الذي سيقف عند هذا التحديد للحس المشترك، وسيحاول فحصه ومعرفة مدى مصداقية اتخاذه معيارا منهجيا في إنتاجنا للأحكام والمعارف. إذ إن له كلمة أخرى في الموضوع، فهو يعتبر كلا من **الفهم والحس المشترك واللغة** شيئا واحدا عندما يقول، في معرض حديثه عن المعرفة

المباشرة بالأشياء كما هي، أنها: «ليست قصاصات [تم قصها] من كل الواقع بالفهم ولا بالحس المشترك ولا باللغة» (Henry Bergson, 2014, P.71)، فما الذي يعنيه برغسون بهذا؟ وما علاقته بحديثنا حول **الحس المشترك**؟

3- الحس المشترك واللغة:

إن تحليلنا **للواقع** في **اللغة** هو اختباء منه فيها. فالواقع وجد قبل أن توجد اللغة، وهو أكثر اتساعا من أن يتشح بها أو أن تشمله. وكل ما تفعله أنها **تجزئ** منه دوائر في أسماء معينة تربط فيما بينها بمعية الذهن بروابط منطقية معينة، أي إنها تعيد تركيب الواقع، وعملية التقسيم والتركيب هذه لا يمكن أن تتم إلا بتحييز الواقع وتثبيته في مكان وحيز معينين. والاتصال المباشر باللغة هو اتصال مباشر بالجاهز داخل المجتمع، أي بالعادة والمألوف، و«عرضنا للحركة والتغير المألوفتين يعوقاننا عن الرؤية» (Ibid،52 .p)، أي عن رؤية الواقع كما هو. وهما مألوفتين لأنهما تنتميان إلى اللغة. وعندما يتم التعبير عن الحركة في اللغة، فإنما يتم التعبير عنها في تركيب متوالية من الكلمات التي تشكل صورا لأجزاء من الواقع.

يكمن دور الفيلسوف في الاتصال المباشر **بالواقع** لا في القفز إلى **اللغة** رأسا. إذ إن محاولة البث في **المفاهيم** لن يقودنا إلى الواقع وإنما سيجعلنا حبيسي **اللغة** فقط؛ لأن «المفاهيم معبأة في اللغة» (Ibid., p.73)، واللغة تنتمي إلى **المجتمع** أكثر من انتمائها إلى الواقع، و«المجتمع يقتطع من الواقع فقط ما يحتاجه» (Ibid., p. 91)، وبالتالي فإن جميع الإشكالات التي تنطلق من المفاهيم ومن **اللغة** عموما هي إشكالات تنتمي إلى **مجتمع** معين، أي أنها لا تنفك تكون جزء من الحس المشترك، إن لم تكن هي منشأ الحس المشترك نفسه.

4- الحس المشترك والذكاء الإنساني:

إن معيار **الوضوح والتميز** الذي يتحدث عنه **ديكارت**، لا يمكن أن تقوم له قائمة في غياب **مسلمة الحس المشترك** (الحس الجيد) رغم ما يعتري هذه المسلمة من غموض. وهو غموض أحس به **كانط** نفسه إبان عرضه لها، فهي تظل غير محددة تحديدا تاما، وإنما دليل وجود الحس المشترك أننا نحسه في داخلنا جميعا وبنفس القدر. غير أن حامل الحس المشترك هو اللغة. وتزداد الفكرة وضوحا بقدر إيلافنا لها في اللغة، إذ «الفكر يستعمل بدون شك دائما اللغة» (Ibid., p.72). فهو يسكنها ويتشح بها. لذا ليس الواضح واضحا إلا من خلالها، مهما شاء هذا **الحس المشترك** أن يعتبر نفسه قبليا وسابقا عنها. فهو نتاج لغة وحبيس لغة. **فالوضوح** في هذا النوع من المناهج، الذي يدعوه برغسون بالمنهج الكمي أو الميكانيكي، لا يخرج عن **الحس المشترك**، بكل معاني الحس المشترك: سواء من حيث أنه مكمن الأحكام الجاهزة أو من حيث أنه نور فطري وملكة حكم قبلية. يقول برغسون: «تكون فكرة جديدة واضحة عندما نعرضها، ببساطة تنظيمها في نظام جديد، من أفكار جزئية نمتلكها مسبقا» (Ibid., p.72)، فلا شيء جديد هنا، كل شيء ينتمي إلى الحس المشترك، كل شيء جاهز، وكلها أحكام مسبقة تنتمي إلى المجتمع سلفا.

هكذا هي طبيعة عمل **ملكة الفهم**، وهكذا هو **الذكاء البشري**؛ يحلل ما كان موجودا في ذاكرة الحس المشترك (اللغة) ويعيد تركيبه بسهولة، في نظام مختلف وكأنه أنتج فكرا جديدا. فكر يقبله **الحس المشترك**؛

لأنه يكون بسيطا وسهلا وصادقا بالنسبة إليه. وبسهولة وبشكل طبيعي «يجمع أفكارا كلها جاهزة وجملا موضوعة مسبقا؛ العلم، اللغة، الحس المشترك، الذكاء كلها في خدمته» (Ibid., p.74). إن **طريقة التفكير هاته مناسبة للذكاء والحس المشترك معا لأنهما من طينة واحدة**. وبهذا يختفي اللبس الحاصل بين **معني الحس المشترك:** أي الحس المشترك بوصفه «مجمل الآراء المسلم بها عموما، في عصر وفي وسط معينين، لدرجة أن الآراء المضادة تبدو كأنها انحرافات وضلالات فردية، لا طائل من دحضها دحضا جديا، ويحسن الهزء منها إن كانت طائشة، أو يحسن الاعتناء بها، إن أصبحت خطيرة» (لالاند، 2001، ص1270-1271)، أي بوصفها أفكارا مسبقة متفق عليها في مجتمع معين؛ وبين كونه **ملكة قبلية** لتمييز الحكم الصادق عن الكاذب ولإنتاج الأحكام بشكل أحسن، أو حتى بوصفها "شعورا سابقا عن كل مفهوم". **إنها الشيء نفسه**. ومهما حاول فلاسفة الحس المشترك الفكاك من **الدوغمائية** فإنما هم يكرسون لها أكثر فأكثر فقط.

5- الحس المشترك والعلم:

إذا كانت الوردة تتفتح دون أن تسأل لماذا ولكن فقط لأن عليها أن تتفتح، وإذا كان العصفور يغرد لأن طبيعته تحتم عليه ذلك؛ **فالإنسان** أيضا قضت **الطبيعة** أن يكون **صانعا** بأن وهبته **الذكاء**. و«دور الذكاء يكمن مسبقا في صناعته للأدوات وفي قيادته لأفعال أجسامنا بين الأجسام المحيطة به» (Henry Bergson, 2014, p.76). وهذا ما يفعله **العلم** أيضا. ما دام الذكاء هو مشعله الذي يرسم له طريقه، ومادام الذكاء هو النموذج الذي يحتذي به العلم، فإن العلم أيضا صناعة[1]، أي فعل تحليل وتركيب موجه بفكرة. وهذا الفعل يتم من داخل **الحس المشترك** طالما أنه نابع من **الذكاء** نفسه. ولا يسع هذا الفعل إلا أن يكون **دوغمائيا**[2]. لذا فإن دراسة طريقة اشتغال العلم وكيفية تطوره يقتضي منا دراسة ميكانيزم الذكاء أيضا،

1- وهذا ما فطن إليه القدماء بتسميتهم للعلوم بالصنائع.

2- تجدر بنا الإشارة هنا إلى أن **الفكر** الذي يتحدث عنه **بارمنيد** يصعب اعتباره **حسا مشتركا** كما يحدده برغسون، وأصعب منه اعتبار **اللوغوس** حسا مشتركا بهذا المعنى. فالحس المشترك بالنسبة لبرغسون مرتبط **بالذكاء والمنهج الميكانيكي** لا **بالحدس**، وذكاء المناهج الميكانيكية – كما يصفه برغسون – لم يبدأ في الظهور والتطور إلا بعد ظهور الفلسفة الأفلاطونية والأرسطية وفلسفة زينون الإيلي، أي بعد ما تم قتل **الطبيعة** (physis) وإفراغها من كل سمات الحياة والتعامل معها بوصفها مادة جامدة يمكن تحليلها وتركيبها، بعد ترجمتها إلى لغة، بواسطة قواعد المنطق الصارمة؛ إن هذا **الذكاء** لم يتشكل إلا بعد خروجه عن **اللغة الاستعارية** إلى لغة الحس المشترك. فإذا كانت الأولى تبحث عن الوحدة خلف الكثرة فإن الثانية تجزئ وتقسم ما لا يقبل الانقسام، فتجعل من الحركة أجزاء متحركة.

يظهر إذن، أن العلاقة بين **الفلسفة والحس المشترك** أنما هي علاقة عداء، في حين أن العلاقة بينهما أكثر تعقيدا من اختزالها في كونها علاقة عداء فقط. فها هو تاريخ الفلسفة من أفلاطون إلى حدود برغسون يستمد لبناته ومعاييره من الحس المشترك نفسه. ثم إذ ينجح الفيلسوف في بناء **نسقه الفلسفي** يحدث أثرا بالغ القوة في الحس المشترك، فإذا هو يعيد تشكيله بهذا القدر أو ذاك. ولعل هذا ما كان يقصده **كانغيلهام** بموقفه الذي ثبت عليه من بداية نقاشه مع كبار الفلاسفة المعاصرين، مثل: ميشيل فوكو، ودرايفوس، وآلان باديو، وإيبوليت، وبول ريكور، في لقائهم سنة 1965. فقد اعتبر أنه لا يمكن الحكم على فلسفة ما بأنها صادقة أو كاذبة، ولكن يمكننا معرفة مقدار عظمتها بمعرفة مدى تأثيرها في المجتمع وفي الحس المشترك. وهنا تكمن قوة الفلسفة، فهي إذ تبني رؤى فلسفية معينة تبني معها عوالم جديدة. ولنا أن نأخذ كمثال على هذا عالم ما بعد الديكارتية، أو ما بعد الماركسية، أو ما بعد النيتشوية... وهكذا تستمر جدلية الفلسفة والحس المشترك. لكننا مع برغسون نجد موقفا أكثر جذرية، وهو موقف يحاول الانعتاق من الحس المشترك بشكل كلي رغم ما يعلم عنه من سلطة تستهوي أفئدة الفلاسفة. إنها محاولة للفكاك من الحس المشترك كلية في

كما من شأنها أن تنقلنا إلى عقد مقارنة بين **الذكاء والحدس** من جهة وبين **العلم والميتافيزيقا** من جهة أخرى.

6- ذكاء العالم وحدس الفيلسوف:

يقوم **العلم والذكاء الإنساني** ببناء المعرفة من خلال **الحس المشترك**، بوصفه أداة هلامية للتمييز بين ما هو صادق وما هو كاذب، وما هو جميل وما هو قبيح... نحاول أن نقنع أنفسنا بأن هذه الأداة قبلية وهبة ربانية ومعجزة إلهية لنزعم لها الكونية. في حين أنها ما ألفه الذهن وبات يرتاح له مما هو جاهز من الأحكام المسبقة. أما الميتافيزيقا أو الفلسفة بوصفهما نفس الشيء حسب برغسون، من حيث أنهما اتصال مباشر بالواقع، سابقان على العلم والذكاء الإنساني ومؤسسا مبادئه وركائزه. يقول برغسون: «للعلم أسس الفعل؛ لكن الميتافيزيقا، سابقة على العلم» (Ibid., p.49)، فالعلم لا يخلق جديدا، وإنما يجد قواعده ومناهجه جاهزة ثم يقوم بتطبيقها حرفيا وبشكل مباشر على مجموعة من المعطيات. لذلك لا يستطيع أن يصنع نفسه بنفسه. وإنما وحدها **الفلسفة** من تستطيع أن تضع شروط اشتغاله. وكل ما على العالم فعله، هو الامتثال لهذه الشروط. إذ إن أرضية العلم وجوائزه من رحم الفلسفة. ومنهجه، مهما تذاكى، فإنه يظل عاجزا عن النظر في هاته الأسس والمبادئ الأولى التي هي بمثابة مسلمات في العلم. وحدها الفلسفة من بمكنتها النظر في هاته المسلمات، فهي من أنجبتها، وهي أدرى بها من غيرها. **والذكاء البشري** عاجز عن النظر فيها لأنها ليست ضمن موضوعه الذي يجيد البحث فيه، أي إن هاته المسلمات ليست مادة مكانية يمكن تقسيمها وإعادة ترتيبها. كما أنه لا يمكن تكميمها وترييضها. وإنما هو يشتغل من داخل هاته المسلمات التي وضعتها الفلسفة سلفا. ومن بين هاته **المسلمات** على سبيل المثال لا الحصر: أن أصل تشكل الكون مادة، وأن الواقع متحيز يمكن تجزيئه، وأن الحركة أجزاء متحركة، وأن الفوضى انعدام للنظام، وأن العدم سابق للوجود، وأنه يمكننا التنبؤ باحتمالات حركة تطور الحياة...

وكل هاته **المسلمات** تمتح سلطتها من كونها تطابق **الحس المشترك**، أي أنها تطابق طبيعة **الذكاء الإنساني والفهم البشري**، وتطابق أيضا ما **اعتاد** عليه الناس. فمثلا «لحظات الزمن وأوضاع الحركة ليست إلا أنّات مأخوذة من قبل فهمنا» (Ibid., p.50)، أي أنها أنات ولحظات مصطنعة وثابتة ولم يعد لها وجود إلا في **الذاكرة واللغة**. وحركة هذه اللحظات والأوضاع لا تعبر في شيء عن **الزمن** إذ «الزمن والحركة هما شيء آخر» (Ibid., p.50)، لا يستطيع **الفهم** بكل مقولاته القبض عليه. وهذا هو مرد كل الإحراجات التي لم تكد تجد حلا من حدود **زينون الإيلي** إلى حدود برغسون. فبسرعة يستبدل **الفهم بالحركة** سلسلة من العناصر المتحركة، ثم يحللها ويبني بها **أنساقا** وتعريفات. في حين أن **حركة الحياة** هي عبارة عن سمفونية متناغمة غير قابلة للتجزيء. فقدانها لقطعة أو جزء يعني اختلال الكل. فالحياة إذن كل ولا يمكن

أحضان الديمومة. هنا حيث يصبح الفيلسوف خلاقا، وهنا حيث يمكنه جر المجتمع معه إلى عالم أكثر حيوية وحرية، عالم فذ ومنقطع النظير.

أن تدرك إلا بوصفها كذلك. وهذا مما ليس من شيم **الذكاء**، ولا من شيم **الفهم**، وإنما هو **نهج الحدس** في إدراك الواقع والحياة والزمن والديمومة.

معظم المسلمات المطروحة أعلاه، نابعة من **الخلط** بين نمطي إدراك كل من **الذكاء والحدس**، وبين كل من **المكان والزمان**. فصرنا **نجزئ الحركة**، ثم ندركها **بأثررجعي** (أو حركة تراجعية إلى الخلف)، ثم نقرر أن للحركة **إمكانات** يمكن **التنبؤ** بها، ثم نعرّف **حرية الإرادة** بأنها **حرية اختيار** بين مجموعة من الإمكانات. والحال أن تعريف الحرية حد لها، بينما الحرية ليست في الحقيقة إلا **فعلا حيويا** بسيطا **و اندفاع حيوي** داخلي. حالها كحال كل حركة خالصة. لذا من واجب الفلسفة أن تضع لنا هذه الشروط العامة للملاحظة رأسا ومباشرة ووجها لوجه، من خلال رسم الخطوط الكبرى الفاصلة بين الزمان والمكان، لتفادي الخلط بينهما وتفادي الوقوع في **إشكالات زائفة**، ناجمة عن عدم ملاحظة الواقع ملاحظة مباشرة. فأن نستبدل بالزمان المكان وبالكيف الكم وبالديمومة التزامن كأن نستبدل بالذهب الأوراق النقدية، ونحن نحسب أنهما الشيء نفسه.

يعترف برغسون بأنه ليس أول من اعتمد **الحدس** منهجا له، وإنما هم فلاسفة كثر، من بينهم شيلينغ وشوبنهاور وغيرهما. إلا أن الحدس إن لم يتجه رأسا إلى **الديمومة** كان أبترا ولحقه ما لحق المناهج الأخرى من وقوع في مستنقع **الحس المشترك**. والحس المشترك لا يميز البتة بين خطي الزمان والمكان (Ibid., p.67). وهذا ما حدث مع معظم فلاسفة الحدس. إنهم حين يظنون أن عليهم ممارسة فعل الحدس يعتقدون أن عليهم تجاوز الزمن والخروج منه أولا. في حين أنه «ليس علينا الخروج من الزمن (نحن خارجه أصلا)» (Ibid., p.68). **فالعقلانية** لا تجد لها مستودعا غير المكان. **والذكاء** لا يجد له مصنعا غير الحيز. يؤكد برغسون فيقول: «إن الذكاء يعمل في شبح الديمومة، لكن ليس في الديمومة نفسها. وحدود الزمن هي حدود فعل المعتاد» (Ibid., p.68)، فبمجرد ما نلامس حدود الزمن خارجين منه، نجد أنفسنا في حدود ما هو عادي وسخيف ومنتم إلى طبيعة فهمنا لا إلى حدسنا. إن مباشرة الحدس للزمان هي **سورة حية** غير قابلة للتجزيء، تكشف عن الديمومة من داخل الديمومة، بوصفهما (الحدس والديمومة) **حياة داخلية**. لذا ليس من وظيفة الحدس بتاتا أن يقدم تعريفات بسيطة وهندسية؛ لأن «التغير الخالص، الديمومة الواقعية، هو شيء روحي أو مشبع روحية، الحدس هو إصابة الروح، إصابة الديمومة، إصابة التغير الخالص» (Ibid., p.70)، هذا هو **طريق الوضوح الثاني**، وضوح لا يستمد مشروعيته من **الحس المشترك**، وإنما من ثراء الحياة نفسها؛ وهو ما لا يمكن التعبير عنه في لغة هندسية، ما دامت **اللغة الهندسية** منتمية بطبيعتها إلى الحس المشترك. بل نجد أنفسنا في هذا المنهج بحاجة إلى خلق لغة جديدة للتعبير عن هذا الثراء غير المألوف. وما دامت هذه اللغة الجديدة غير مألوفة بعد، ولم تنتم إلى الحس المشترك بعد، فليس لها إلا أن تكون **لغة استعارية**.

صار جليا إذن أن استعمال **اللغة الاستعارية** ليس ترفا من أجل التسلية وتزجية الوقت ودغدغة المشاعر، **والحدس** ليس – كما اعتبره شوبنهاور – خروجا من صخب الحياة المادية إلى هدوء الروح وسكينتها، وإنما هو – على العكس من ذلك - خروج من راحتنا الناجمة عن اطمئناننا للمألوف إلى صخب

الروح. يتطلب هذا الانتقال **جهدا** شاقا وجبارا لمباشرة **الروح** رأسا ولإنتاج لغة تعبر عن هول ما يُرى فيه. إن الاستعارة ضرورة فرضها الحدس بوصفه منهجا. والحدس فرضه الروح بوصفه موضوعا. **وحدس الروح** هذا هو عينه **الميتافيزيقا أو بالأحرى الفلسفة**، أي لا يمكن تصور الميتافيزيقا في غير إزار الاستعارة. يعرف برغسون حدس الروح أو الرؤية المباشرة للروح بقوله: «الرؤية المباشرة للروح من خلال الروح هو الدور الرئيسي للحدس، كما نفهمه» (Ibid., p.83).

7- خاتمة:

الاختلاف إذن بين **العلم والفلسفة**، ليس اختلافا في القيمة، وإنما هو اختلاف في **الموضوع**، وبالتالي هو اختلاف في **المنهج**. فلا علم دون حس مشترك و«ميتافيزيقانا تكون العالم حيث نحيا، وليست كل العوالم الممكنة» (Ibid., p.84). يمكن القول مع برغسون أن: «الميتافزيقا معرضة للخطر أكثر من أي علم آخر. عليها في كل عملها أن تزيل الأنقاض من أجل فتح رؤى التجربة الداخلية» (Ibid., p.87)، أي أن عليها أن تعمد إلى تخليص كل ما هو **كيفي** من أهداب ما هو **كمي**. وهذا يعني أن الفلسفة تنظر في الأصول التي تحدد للعلم **موضوعه ومنهجه وإشكالاته**، طالما أنها متصلة بالحياة مباشرة وقبل كل شيء؛ هكذا يعلنها برغسون بصوت لاتيني: «primum vivere» (Ibid., p.93). ويشير مونتيبيلو وميرافيت، مقدما كتاب الفكر والمتحرك (2014)، إلى أنها دالة على العبارة اللاتينية الشهيرة ذات المعنى التالي: «الحياة أولا، ثم التفلسف» (Ibid., p.338). طبعا كان هذا دأب القدامى، فلا فلسفة دون توفر أسباب الحياة أولا، ولا فلسفة إلا وهمّها الحياة؛ إلا أن انشغالهم **"بالحياة"** كان انشغالا بشيء مبهم وغير معروف في حد ذاته. هكذا حمّل برغسون هذه الجملة حياة جديدة، إننا لكي نتفلسف لا بد لنا أولا من أن نحتك **بالحياة**، وهذا الاحتكاك لا يمكن أن يتم إلا بواسطة **الحدس**، حينها فقط، تلمع شرارة **الوعي الخالص**.

لذلك، يكمن دور **الفلسفة** في النظر في ما وراء كل **علم** وكل **منهج** وكل **حس مشترك**، لكي تحدد لكل واحد من العلوم موضوعه ومنهجه وإشكالاته، عبر فحص **المسلمات** التي يقوم عليها. والانتقال من اختبار الحلول إلى اختبار الإشكالات المطروحة وتبين الصحيحة منها والزائفة، داخل الديمومة وخارج الحس المشترك الذي ظلت كل الأنساق الفلسفية السابقة حبيسة فيه.

قائمة المصادر والمراجع:

باللغة العربية:

1- إمام، عبد الفتاح إمام: (2005)، مدخل إلى الميتافيزيقا، القاهرة: نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع.

2- أنوار، حمادي: (2025)، الدين بين العقل واللاعقل في فلسفة برغسون، بيروت: مؤسسة مؤمنون بلا حدود.

3- كنت، إمانويل: (2005)، **نقد ملكة الحكم**، ترجمة غانم هنا، بيروت: توزيع مركز دراسات الوحدة العربية.

4- لالاند، أوندريه: (2001)، **موسوعة لالاند الفلسفية**، تعريب خليل أحمد خليل، بيروت- باريس: منشورات عويدات.

5- نيتشه، فريديريك: (1983)، **الفلسفة في العصر المأساوي الإغريقي**، تقديم ميشيل فوكو، تعريب سهيل القش، بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع.

باللغة الأجنبية:

1- Bergson، Henri, (2014) «La Pensée et le Mouvant», Présentation par Pierre Montebello et Sébastien Miravète, GF Flammarion, Paris